المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية – جامعـة سيدي بلـعباس
ISNN : 2170-0060 EISSN : 2602-523X
المـجلـد 06 -- العدد 02 -- ديسمبر 2015 ص 87 - 95

مقاربة تفكيكية في بنية القنوات الفضائية الجزائرية الخاصة

A Deconstructive Approach to the Structure of Private Algerian Satellite Channels

د. نصرالدين نواري Dr. Nassreddine Nouari nacirnouari@gmail.com	علم اجتماع الاتصال	جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 - الجزائر

DOI :

ملخص

لاق فتح القطاع السمعي البصري أمام الخواص، اهتمام الكثير من الباحثين في مجال علوم الإعلام والاتصال، الذين انكبوا على دراسة مختلف القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كنتاج لهذه التجربة الإعلامية "الحديثة" في الجزائر، من أجل تقويمها وترشيدها وعقلنتها، ومحاولة البحث في تجلياتها ورهاناتها المستقبلية.

وبناء على ذلك، تأتي هذه الورقة البحثية الموسومة بـ:"مقاربة تفكيكية في بنية القنوات الفضائية الجزائرية الخاصة"، للحفر في الأبنية الظاهرة والخفية التي تشتغل وتتحكم في سير القنوات الفضائية الجزائرية الخاصة.

كلمات مفتاحية: تفكيك؛ بنية؛ فضائيات؛ اتصال؛ صحافة.

Abstract

The opening of the audiovisual sector to the public has received the attention of many researchers in the field of media and communication sciences who have focused on studying various social, economic and political issues, as a result of this "modern" media experience in Algeria, in order to evaluate, rationalize and rationalize it, and try to research its future manifestations and stakes.

Accordingly, this research paper tagged with: "A deconstructive approach to the structure of private Algerian satellite channels" comes to dig into the visible and hidden structures that operate and control the functioning of private Algerian satellite channels.

Keywords: Deconstruction ; structure ; satellite channels ; communication ; press.

مقدمة

شهدت الساحة الإعلامية الجزائرية في السنوات الأخيرة، إطلاق عشرات القنوات الفضائية، وذلك بعد فتح الحكومة لقطاع السمعي البصري أمام المستثمرين الخواص، إذ تم إلى غاية شهر أكتوبر 2015 تأسيس 44 قناة خاصة تبث مضامين إخبارية وفنية وبرامج سياسية واجتماعية واقتصادية ورياضية، وتعد قناة "النهار" أول قناة تلفزيونية إخبارية جزائرية، تلتها قناة "الشروق"، و"الجزائرية"، وتضاف هذه الفضائيات إلى القنوات الحكومية الخمس التي تتبع التلفزيون الجزائري الرسمي.

هذه الورقة البحثية؛ ستعتمد بشكل كبير على المقاربة النظرية لعالم الاجتماع الفرنسي "بيير بورديو" (Pierre Bourdieu) التي أصّل لها في كتابه المعنون: (Sur la télévision Suivi de L'emprise du journalisme) الصادر سنة 1996، وقد ترجمه للغة العربية "درويش الحلوجي" بعنوان: (التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول) سنة 2004، وقد تم الاعتماد على هذه المقاربة؛ لقدرتها على تقديم أدوات نظرية ومنهجية متكاملة، كما سيتم كذلك الاستعانة ببعض الأطروحات الأخرى ولو بشكل مقتضب، ونخص بالذكر مقاربة "جان بودريار" (Jean Baudrillard) حول التلفزيون وعالم الواقع المفرط/ Hyperréalité، وسيقوم الباحث بدءا بتفكيك بنية القائم بالاتصال في تلك القنوات الفضائية الجزائرية الخاصة؛ من خلال الرجوع إلى أصوله الاجتماعية والثقافية .. يلي ذلك عنصر يبحث عن الجهات التي تمتلك تلك الفضائيات، مرورا بالأستوديوهات والبلاتوهات التي تحضَّر وتذاع من خلالها الأخبار والبرامج، لينهي الباحث هذه الورقة بتفكيك العقلية "الأوديماتية/l'audimat" التي تتحكم في بنية المضامين، وما موقف الجمهور المتلقي من ذلك؟

الباحث ومن خلال هذه الورقة، لا يقدم إجابات لأسئلة كثيرة، بقدر ما يقدم خارطة طريق بحثية، قد تساعد ربما فرقا متخصصة تضع هذه القنوات الخاصة على طاولة التشريح العلمي.

1. في تفكيك بنية القائم بالاتصال

يقول عالم الاجتماع الفرنسي "بيير بورديو" في كتابه "التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول": "إنّ عالم الصحفيين عالم يتسم بالانقسام؛ ففي داخله تكمن كل أنواع الخلافات والأزمات.. المنافسات والمعارضات". (بورديو، 2004، صفحة 55).

ويقول في موضع آخر من الكتاب "إنّ الصحفيين يشهون نظّارات خاصة؛ بواسطتها يرون أشياء معينة ولا يرون الأشياء الأخرى.. إنهم يمارسون عملية اختيار ثم عملية إعادة تركيب لذلك الذي تم اختياره". (بورديو، 2004، صفحة 49).

تأسيسا على مقولتي بورديو، فإنّ الصحفي الذي نراه "بصورة اختزالية" منشّطا ومقدّما ومذيعا للأخبار على القنوات الفضائية الجزائرية الخاصة، محكوم بأبنية اجتماعية وسياسية وثقافية خفية تقوم بتأثيث ذاته الإعلامية، فتجعل منه "أداة" تمارس ما أسماه بورديو "عملية اختيار ثم عملية إعادة تركيب لذلك الذي تم اختياره". والسؤال الذي يطرح نفسه هنا:

ما طبيعة تلك الأبنية الخفية التي تتحكم في ذلك الصحفي/الإعلامي الذي يشتغل في تلك القنوات الفضائية الجزائرية الخاصة؟

إنّ الإجابة عن هكذا سؤال؛ تستدعي من الباحث في مجال سوسيولوجيا الإعلام والاتصال، عملا شاقا ومتعبا وذلك بالغوص عميقا في المجتمع المدروس (القنوات الفضائية الجزائرية الخاصة) في فترة زمنية قد تستغرق عدة أسابيع أو ربما عدة أشهر وأكثر، بالاستعانة بأدوات بحثية كالمقابلة والملاحظة، والملاحظة بالمشاركة، والوصف المكثف، ليتسنى له تقديم تفسيرات لتلك الأبنية الخفية.

الباحث مطالب بدءا بمحاولة معرفة الأصول الاجتماعية للصحفيين وذلك بالتقصي عن انتمائهم الجغرافي: حضر/بادية، العاصمة/مدينة داخلية، شمال/ جنوب.. وما هي المنطقة أو الجهة الأكثر تمثيلا في تلك القنوات؟ وما الأسباب وراء ذلك؟

الباحث مطالب كذلك، بالاستقصاء عن الخلفية الأسرية لهؤلاء الصحفيين: غنية/ فقيرة، متعلمة/ غير متعلمة، نافذة /غير نافذة. والتعرف على أصولهم الثقافية بالمعنى الأنثروبولوجي (معتقد، لغة، إيديولوجيا...إلخ) وكيف يؤثر ذلك في محتوى المضامين؟.. والباحث وإذ هو يقوم بتلك العملية الاستقصائية، يحاول في الوقت نفسه أن يعرف طريقة التحاق هؤلاء الصحفيين بتلك القنوات الخاصة؛ والنظر في إمكانية توسط جهات "نافذة" سياسية أو مالية لتسهيل عملية توظيفهم، ربما دون مراعاة للمستوى الثقافي والعلمي الذي يحوزونه والذي يؤهلهم لشغل ذلك المنصب، وما هو المقابل المعنوي أو المادي المنتظر من وراء ذلك؟ هل هنالك محسوبية وعروشية وجهوية في توظيفهم؟ إن كانت توجد فمن أجل ماذا؟

الباحث مطالب كذلك بتفكيك أدوار الهيمنة والخضوع؛ وفهم الميكانيزمات التي تتحكم في تلك العملية، بمعنى هل "الصحفي المهيمن"، هو نتاج الكفاءة، أم الانتماء السياسي أو الجهوي أو الإيديولوجي.. أم هل هنالك مقومات أخرى تصنع ثنائية المهيمن/الخاضع؟

نقطة أخرى، تلك التي تتعلق بمسألة الجندر أو الجنوسة (Gender) "التي تشير إلى تلك السلوكيات التي تحدد الأفراد باعتبارهم ذكورا أو إناثا في سياقات اجتماعية وثقافية معينة" (سكوت، 2006، صفحة 397).

فالباحث هنا مدعو إلى تفكيك البنية التي تتحكم في الأدوار التي تؤديها "الصحفية" مقارنة بالأدوار الذي يؤديها زميلها "الصحفي"، وذلك من خلال قياس، أوضاعهما السوسيو- مهنية، وأيّهما الأكثر ظهورا وهيمنة، سواء في "الكواليس" أو في "العلن"، وما هي الأسباب التي تتحكم في ذلك الظهور وفي تلك الهيمنة؟ وما هي الشروط الواجب توفرها في "الصحفية" أو "الصحفي" من أجل الظهور على الشاشة؟

إنّ مهمة السوسيولوجي هنا هي مهمة جد معقدة تنطوي على الكثير من المخاطر، بحيث قد تتسبب في إزعاج الصحفيين والصحفيات وعدم الثقة في الباحث، لما قد يطرحه من أسئلة قد تمس خصوصياتهم الشخصية والاجتماعية والمهنية، غير أنّ الباحث مطالب في كل الأحوال بإزاحة الستار عن ما يدور في الكواليس التي يشتغل فيها هؤلاء الفاعلون الاجتماعيون الذين يمارسون أدوارا خفية/ظاهرة داخل مباني تلك القنوات... وبوصف الحياة اليومية للإعلاميين، وفهم محددات علاقاتهم الاجتماعية والمهنية، وكذا تفسير الأسباب التي تجعلهم في تنافس، في صراع، وفي تعاون.

2. من يمتلك تلك القنوات الفضائية؟

"عندما يتعلق الأمر بإحدى القنوات التلفزيونية، إذا لم نعرف اسم المالك، ونصيب كل من المعلنين في الميزانية وقيمة الدعم الذي تقدمه الدولة لا يمكن فهم شيء كثير". (بورديو، 2004، صفحة 44)؛ انطلاقا من هذه المقولة "البورديوية" يتضح أنه لفهم ما تبثه تلك القنوات من مضامين، لزم على الباحث أن يعرف الملاّك الحقيقيين لتلك القنوات الخاصة، ومعتقداتهم السياسية والثقافية والإيديولوجية والمهنية وطبعا المالية. بمعنى أدق؛ هل مالك القناة "س" الجزائرية الخاصة، ينتمي إلى "كارتل" مالي دولي

أو وطني يمتلك الكثير من القنوات التي تسعى إلى خدمة أجنداته المالية من خلال عمليات التسويق الإشهاري لمؤسساته وشركاته ومشاريعه؟

سؤال آخر: هل مالك القناة "ص" الجزائرية الخاصة هو سياسي في ثوب إعلامي، يستعمل تلك القناة لخدمة أجندات سياسية بصناعة رأي عام مؤيد أو معارض أثناء موقف سياسي محدد؟

سؤال آخر: هل مالك القناة "ج" الجزائرية الخاصة هو إعلامي سابق في التلفزيون أو في إحدى الصحف الوطنية الخاصة أو العامة، قام بتأسيس تلك القناة الخاصة لدواعٍ مهنية ولتنوير الجماهير بالمستجدات الوطنية والدولية؟

سؤال آخر: القنوات الجزائرية الخاصة "ت" و"ح" و"غ" لا يعرف ملاكها الحقيقيون؟ هل يوجد سبب واضح يمنعهم من الظهور؟

إنّ ذلك الغموض يستدعي تفكيكا من الباحث في سوسيولوجيا الإعلام والاتصال، عن طريق التقصي تارة وتارة أخرى بواسطة تحليل بنية المضامين، أي المخرجات الإعلامية لتلك القناة، وكيفية تفاعلها مع الأحداث والمستجدات الدولية والوطنية في فترات زمنية مختلفة، إضافة إلى تمحيص المادة الإشهارية التي تعرضها بمعرفة مصدرها، هل هي لشركات خاصة أم لمؤسسات عمومية؟ ولماذا تغيب بعض الفواصل الإشهارية عن قناة، وتحضر في قناة أخرى منافسة...؟

إنّ الإجابة عن تلك الأسئلة وغيرها كفيل بتفكيك البنية التي تمتلك تلك القنوات الفضائية الجزائرية الخاصة.

3. ماذا يحدث في "الأستوديوهات" و"البلاتوهات" ؟

يؤكد بورديو أنه إذا كان التلفزيون يفضل عددا معينا، ممن يسميهم "المفكرين السريعين/ Fast-Thinkers"، الذين يقدّمون غذاء فكريا على السريع وهو نوع من التغذية الثقافية التي تم إعدادها مسبقا والتي تم التفكير فيها مقدما، فذلك ليس فقط لأن من يقومون بذلك لديهم بطاقة عناوين جاهزة تتضمن الأشخاص أنفسهم دائما، ذلك أن هناك متحدثين مجدّين يقومون بالبحث عما إذا كان هناك شيء ما يمكن قوله بالفعل، وهم غالبا من الشباب غير المعروفين بعد، ملتزمين في أبحاثهم، وليس لديهم نزوع للتردد على وسائل الإعلام التي يجب الذهاب واللهاث وراءها، بينما هي متاحة دائما وتحت الطلب وعلى استعداد لعرض أوراق أو إعطاء مقابلات لمحترفي وسائل الإعلام، لكن

هناك حقيقة أنه لكي تكون قادرا على التفكير في ظل ظروف لا يمكن لأحد أن يفكر فيها على الإطلاق عليك أن تكون مفكرا من نوع خاص. (بورديو، 2004، صفحة 67).

وانطلاقا من ذلك، يهم الباحث أن يعرف ما يدور في كواليس غرف الأخبار والأستوديوهات، من عمليات تحضير الحصص والبرامج النقاشية: هل هنالك ضيوف تحت الطلب يؤدون أدوارا مسرحية بحيث يبدون أنهم في عراك سياسي أو ثقافي أو رياضي أو اجتماعي محتدم؟

ضيوف يعرفون جيدا المسموح به والممنوع قوله، في هذه المنابر.. ضيوف لديهم القابلية لتنفيذ السيناريو المراد تمثيله أمام الكاميرا، والمحبوك بدقة بين ملاّك القناة، والصحفيون المطالبون بمراعاة المصالح المالية والسياسية للقناة، من خلال توجيه وكبح أحد الضيوف إن هو قرر الخروج عن السيناريو المتفق عليه بدءا.

يعطينا بورديو مثالا عمليا عن ذلك، حينما يقول في الكتاب ذاته: "البرنامج التلفزيوني الذي قدمه (ديوران) حول موضوع النخب والذي شاهدته عن قرب كان كل هؤلاء الأفراد حاضرين، كان هناك كل من (جاك أتالي) و(نيكولا ساركوزي) و(ألان منك).. في لحظة معينة تحدث (أتالي) إلى (ساركوزي) قائلا (نيكولا... ساركوزي) كانت هنالك لحظات صمت بين الاسم الشخصي (الاسم الأول نيكولا) وبين اسم العائلة (ساركوزي)، إذا كان قد توقف عند الاسم الأول (نيكولا) فإننا نرى على الفور أنهما شركاء في اللعبة، إنّ كل منهما يعرف الآخر بشكل شخصي حميم، بينما نرى أنهما يظهران في البرنامج التلفزيوني على جانبين متعارضين". (بورديو، 2004، صفحة 68).

يتضح من مثال بورديو، أنه يجب على الباحث السوسيولوجي معرفة، كيف تدار تلك الحصص على الهواء، وكيف يتم إعداد "البلاتوهات" وكيف يتم توزيع الكلمات بين المتدخلين، وما طبيعة اللغة الصامتة المستخدمة: الإيماءات والإشارات وحركات العيون، وكذا الكلام المستعمل، ووجب تحليل كل هذا من خلال الاستعانة بالتراث السوسيولوجي الإثنوميتودولوجي/Ethnomethodology، الذي أصّل له بحثيا كل من: هارولد غارفينكل (Harold Garfinkel) وإيرفن غوفمان (Erving Goffman).

4. العقلية الأوديماتية.. وإشكالية المضامين والتلقّي

"يسعى التلفزيون إلى دفع الأمور نحو إضفاء طابع "الدراما" وذلك بمعنى مزدوج، إنه يضع في المشهد، في الصورة، واقعة أو حدثا ثم يقوم بالمبالغة في أهميتها، في خطورتها وفي صفاتها الدرامية والتراجيدية". (بورديو، 2004، صفحة 50). قد يتساءل البعض ولماذا يبالغ التلفزيون في دراماتيكية وتراجيدية الحدث؟ ليجيب بورديو أنّ الأوديمات L'audimat (نسبة المشاهدة العالية) التي تتمتع بها القنوات التلفزيونية المختلفة، هي من يتحكم في ذلك.

إنّ القنوات الفضائية الجزائرية الخاصة محكومة كذلك بالعقلية الأوديماتية، وقد صوّرت الكثير من الأحداث الوطنية والدولية في شكل دراماتيكي وتراجيدي، وعلّبت في الكثير من الأحايين بعض الأخبار غير المهمة؛ في قالب "الحصري" و"العاجل"، في محاولة لإيهام الجماهير بأنها "المهيمنة" و"الأقوى" في الفضاء السمعي البصري الجزائري الخاص (الوليد) من أجل التربع على عرش الأوديمات الذي من شأنه أن يعطيها مزايا دعائية تقبض ثمنها في الغالب على شكل عائدات إشهارية (عمومية أو خاصة).

وإذ هي تفكّر بعقلية "أوديماتية" تركّز تلك الفضائيات الخاصة في تغطيتها للأحداث، قياسا على الطرح النظري لأنتوني غدنز (Anthony Giddens): ".. على جوانب معينة من الحدث مع إغفال أخرى، أو انتقاء جوانب معينة من الواقعة التي يغطيها الخبر مع إهمال أخرى، أو التشدد في إبراز نقاط معينة في موقف ما وحذف نقاط أخرى قد تكون أكثر أهمية ودلالة". (غدنز، 2005، صفحة 509).

وفي هذا السياق وفي ظل هذا التسابق الأوديماتي بين الفضائيات الجزائرية الخاصة، ستغيب الحقيقة الاجتماعية عن جمهور المشاهدين، نتيجة تضخيم/تقزيم الأحداث، ليحل مكانها ما يسميه جان بودريار "عالم الواقع المفرط/ Hyperréalité"، حيث أنّ التلفاز أصبح "لا يعرض لنا العالم أو يعكسه أو يمثله بل إنه أصبح بصورة متزايدة "يحدد" ويعيد تعريف ماهية العالم الذي نعيش فيه.. فالعالم الحقيقي لم يعد موجودا بالفعل، بل استعيض عنه بما نشاهده على شاشات التلفاز من مشاهد وصور وأحاديث وتعليقات. فقبل اندلاع حرب الخليج بعد غزو العراق للكويت عام 1991، كتب بودريار مقالة صحفية عنونها (حرب الخليج لن تحدث)، غير أن حربا دموية قد اندلعت بالفعل، مما أوهم الكثيرين بأن بودريار ربما ارتكب خطأ فادحا في نظرته إلى الأمور، غير أنه عاد فور انتهاء الحرب ليكتب مقالة أخرى بعنوان (حرب الخليج لم

تحدث)، وكان يعني بذلك أن حرب الخليج بين جورج بوش الأب وصدام حسين لم تكن مثل الحروب الأخرى في التاريخ، لقد كانت حربا تدور على النحو الذي صورتها به وسائل الاتصال الجماهيرية الحديثة، لقد كانت ببساطة مشهدا استعراضيا تلفازيا، وكان زعيما القوتين المتناحرتين آنذاك، ومعهما عشرات الملايين من المشاهدين، يتعرفون من خلال (عالم الواقع المفرط) الذي يعرض لهم، على ما يحدث في الواقع الحقيقي الفعلي)". (غدنز، 2005، الصفحات 512-513).

ويجمع النقاد والمهتمون بوظائف وسائل الإعلام اليوم وخاصة عن الأدوار المنوطة بالقنوات التلفزيونية، على أن الفضائيات اجتاحت حياة الناس، وأصبحت تنمّط التفكير والمواقف والرؤى، وتعرض على الهواء أسرار الحياة الحميمية والخاصة، وتأخذ من وقتنا الكثير لتقدم لنا مادة تغلب عليها السطحية. (Wunenburger, 2000, p. 3).

ولكن ما موقف الجمهور من كل هذا؟ سؤال وجب على الباحث السوسيولوجي أن ينطلق منه لمعرفة مدى تفاعله (الجمهور) مع تلك المضامين المؤثثة بالعقلية الأدويماتية التي تبحث عن التهويل والدراماتيكية والتراجيديا المبثوثة على شكل "عاجل" و"حصري".

وفي هذا الخصوص يرى ستيفن كولمان (Stephen Coleman) وكارين روس (Karen Ross) أن "صوت الجمهور ليس غائبا تماما عن الإعلام المعاصر، لكنه حيثما يظهر فإنه يتم إخضاعه بدرجة كبيرة وتقييده تماما بواسطة عدسة صحفية تقوم بصياغة كلماتنا / كلماتهم بطرق خاصة". (كولمان و روس، 2012، صفحة 78).

إذن يجد الباحث نفسه، أمام تساؤل بحثي آخر: هو هل الجمهور الجزائري الذي يشاهد تلك الفضائيات لا يملك من أمره شيئا؟ هل هو متلقٍ تمّت عملية إخضاعه بنجاح، بحيث أصبح يتفاعل إيجابا ويصدّق ويثق في كل المواد الإعلامية التي تزوده بها تلك القنوات؟

أم هو متلقٍ نقدي يفهم السياقات السوسيوثقافية والسياسية والاقتصادية التي تتحكم في البنية الإعلامية لتلك القنوات الفضائية الجزائرية الخاصة؟.

هذه الأسئلة وغيرها، تساعد الباحث في فهم الأثر الذي تخلّفه القنوات الفضائية الجزائرية الخاصة على الجمهور الجزائري.

المصادر والمراجع

- أنتوني غدنز. (2005). علم الاجتماع (ط 4). (ترجمة: فايز الصياغ) بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
- بيير بورديو. (2004). التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول. (ترجمة: درويش الحلوجي) دمشق، سوريا: دار كنعان.
- جون سكوت. (2006). علم الاجتماع المفاهيم الأساسية. (ترجمة: محمد عثمان) بيروت، لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- ستيفن كولمان، و كارين روس. (2012). الإعلام والجمهور. (ترجمة: حسن عبد القادر صباح) القاهرة، مصر: دار الفجر للنشر والتوزيع.
- Wunenburger, J.-J. (2000). L'homme à l'âge de la télévision. Paris, France: Puf.